صورٌ من الجزيرة

المغتربات .

جارة النبي .

العابدة .

آمنـــة .

المغتربات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب الغالب ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستبيح ! » . . .

لقيتهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهن ، وتبعن أزواجهن إلى ذاك المهاجر النائى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء العش وأنس الأسرة ، ما يعينهم على العمل الشاق المرير ، بين الصخور والرمال . . .

لقيتهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوربيات وأسيويات : عصريات مثقفات ، قد رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة يمسحن بأناملهن الرقيقة العرقَ المتصبب من جباه رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتهن هناك : ابتسامةً وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب وأطيافاً رقيقة أنيقة وسط المهمه القفر ، ونغمة عذبة ، تسرى أصداؤها فى الأفق ، لتهدهد الرجال الذين يعملون بين

ضجيج الآلات الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة . . .

* * *

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود : أن تبنى للوافدين مساكن طيبة ، تحيط بها حدائق مزهرة تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطمات الرياح السافيات !

ولم يشق على « شركة الزيت » أن تضى- مساكن رجالها بالكهربا ، وتكيف فيها الهواء ، وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » لكنها لم تكن لتستطيع — ولو ظفرت بمال قارون وعثرت على كنوز سليمان — أن تزود عن الرجال الضجر والملال ، أو أن تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حيثما مست يداها ! أو أن تلقى على المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، ظلالاً من الأنس واللطف والرقة والحنان ، كتلك التى تلقيها الزوجات والأمهات ! !

هن اللواتى يجعلن المساكن بيوتاً ، ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات

إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوى بأريج الطفولة الباسمة المتفتحة للحياة !

ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ، واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرأوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب !

* * *

ومضيت ألتمس مصريًّا واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !

وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ، فلم يستجب لها أحد ، كما استجاب آخرون : من الهند ، وإندونيسيا ، وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، وأوربا ، وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب لا يظفر به أجنبى ، وتنزلهم بين أبنائها مكاناً تضن به على الغربيين الغرباء ؟

لسبب بسيط ، هو أن المصريات — حتى عام رحلتى : ١٩٥١ — كن يأبين الهجرة إلى هذه المنطقة من قطر شقيق ،

ويرفضن أن يتبعن أزواجهن إلى نجد ، والأحساء ، مهما تكن المغريات !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غربيات لا يعرفن حرفاً من العربية ، ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن ؛ إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس ودخول القسس والرهبان ، فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياة . مصريات ينزلن هناك بين أهل وجيران ، وإخوان فى الجنس واللغة والدين ؟

أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى «الظهران» ، غربية عصرية ، قد تكون ولدت فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى إحدى قرى الريف أو نجوع الصعيد ؟

لكن لا . . .

ليس فى الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وهكذا خُلقن ، والأمر لله ! .

إن المصرية تأبى أن تنزح من القاهرة إلى الفيوم ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى قاهرية ترضى بالزواج من رجل يعيش فى الريف ، ولو كان من ملاك الأراضى وأصحاب الضياع !

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون فى الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتملن العيش بعيداً عن أضواء

العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً — لاتكاد تُصدَّق — عن طالبى النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء فى جزيرة العرب ؟ !

إنى لأذكر زوجات بعض الموظفين فى إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة ، فى منطقة أشبه بالجنة . وقد رفضن مع ذلك أن يعشن هناك فى (الڤيلات) الأنيقة المضاءة بالكهربا ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . . .

وهناك فى المنطقة نفسها — وهى مكتظة بمصانع لأجانب ومتمصرين — تعيش سيدات غربيات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن فى الحياة ، ويؤمن برسالتهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتُصبت زماناً ، وشرقنا الذى غُلب طويلا واستبيح ! !.

الظهران : ١٠/٢/١٩٥١

جارة النبى . . .

« قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم »

سعينا إلى الحرم النبوى فى جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذى ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الدُّنى ، وتُرَجِّعه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والوديان فى رنين علوى النغم ساحر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمة هائمة !

وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشَّعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفا الحس . وشفَّ الشعور ورَقَّ القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة فى ركب الأرواح المطيفة بحرم النبى ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قضيت الصلاة . انتشر القوم خارج المسجد ساعين إلى أرزاقهم ، وبقيت قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا وآثروا

جوار الرسول على كل متاع فيها ، وآخرين أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم . يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر فى المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

* * *

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً فى الحرم ، أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذى وعيت من مشاهد التاريخ الإسلامى منذ عام الهجرة ، إلى أن لبى المصطفى نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر ، صلى الله عليه وسلم ، فى هذه البقعة المباركة الباقية على الزمن ، مزاراً مقدساً يحج إليه المسلمون من شتى أقطار الأرض.

ومرّ بى فى مجلسى عدد من النسوة يطفن بالروضة الشريفة ، فلم ألق إليهن بالا ، حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غير بعيد منى شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعى عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتى . لكنى ما لبثت أن سمعت صوت نشيج مختنق ، رددته جوانب الحرم فكان له صدى لافت ، وجمنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدرت رأسى نحو الباكية ، فألفيتها إلى جانبى : امرأة

نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض فى ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخنق أنفاسها المتلاحقة . . .

وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدى إلى جانبها أرنو إليها فى رثاء وعطف ، حتى رفعتْ نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بى :

ــ ادعى لى !

قلت فى حرارة وتأثر :

ــ الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :

ــ غريبة أنت عن الديار ؟

أجابت وهى تشهق :

ــ وى ! غفر الله لى ولك ، أتكون غربة مع جوار النبى ؟ ولكن لى فى بلاد المغرب فلذةَ كبدٍ غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبى ، فأفزع إلى ربى لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين يا ستى كتابَ الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

ــ أرجو ، فما الذى تبغين ؟

أجابت فى لهفة :

— تقرئين لى قصة نار « إبراهيم » فإنى أشعر كلما سمعتها براحة . . .

فأدركت ما تعنى . وتلوت عليها قوله تعالى :

« قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

وهنالك انبسطت أساريرها . وبان عليها الارتياح ، لكنها عادت فتجهمت وهمست تسألنى فى خوف وارتياب :

— وهل ترين أنى أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟

فرجوت لها ألا تيأس من روح الله . ثم هممت بالقيام معتذرة بأنى من قومى على موعد ، كى نسعى إلى « أحُد » ثم إلى « قُبَاء »(١) قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .

فتوسلتْ إلىّ أن أبقى هنيهة ، ريثما تقص قصتها علىّ :

---

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوب « المدينة » على يسار الطريق إلى مكة . نزل بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى هجرته التاريخية ، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام .

* * *

نشأتْ فى بوادى المغرب الأوسط [١] ، بدويةً حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهى بعد صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم رطبة العود ، حتى ركبهم الهمُّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ، ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشاراتها ، ويتبعون مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يَنِدُّ عنها من هذر الأحلام فى غفوة النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ؛ إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء الرعاة ، وهكذا استقبلت ربيع العمر فى ظل رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة أو ضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى فى شريعة البداة الجفاة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن يُرضيهم منها أىُّ حال :

---

(١) فى كتب السلف ، يطلق المغرب على الشمال الإفريقى من ليبيا إلى مراكش . وربما أطلقوا المغرب الأوسط على تونس .

إن وجمت، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمت قيل عاشقة لقيت الحبيب ! .

إن مرضت قيل مجفوة آدها الهجر ، وإن صحّت قيل راضية صفا لها الحب . . .

إن نامت قيل حالمة تهفو إلى طيف المحبوب ، وإن سهرت قيل مسهدة جفاها الرقاد . . .

إن تجملت قيل فاجرة تتهيأ للقاء ، وإن أهملت زينتها قيل ضالة رحل عنها من تهواه ! !

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بخبال ، فدعوا لها ضاربي الرمل وقارئي الكف ، كي ينزعوا منها قهراً ذلك السر الموهوم الذي تكتمه ، وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذي تفتح برعمها وازدهر . .

وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كي يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذي بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . . .

* * *

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .

أو هكذا ظنت وظنوا . . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من محنة الترصد . وطاب لهم ولها أن يئدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تُخمد جذوته وتذهب بعبيره الفياح !

لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع غلاماً جميلا فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهت أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرّحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى

مكاناً قصيًّا وانطوت على أحزانها تجترها فى هدوء وصمت . . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة وافد غريب جاء من أقصى المغرب يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كلَّت قدماه من طول السُّرى فنزل بالقوم يلتمس القرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة . . . هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتها عيناه فى كل ليلة ، وهى تصغى إليه من ركنها المنزوى ، فرقَّ قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحمالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبثت بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك .

فكادت تيأس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلبها زوجة

وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها صاحبة تهون عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . .

ثم انصرف بها ، يبغيان مكة المكرمة ، ومن ثم إلى المدينة المنورة . . .

* * *

تبعت زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها ، وقد هون عليها ذلك كل ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق . وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، تسعفها بمدد من القوة والاحتمال .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى جدار الحرم المبارك ، فردّت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً ، لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى

مع مطلع كل فجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ؛ ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل الصالح قد انتهى منذ استقر بها المقام فى « المدينة المنورة » . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يُؤْذَنَ لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تُظِلُّ ولدها . أما وقد جاء بها إلى «المدينة» إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولا عما تعانى من شوق طاغ إلى ولدها :

أو لم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويبعدها بالسلو والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !

ما بالها لا يكاد بصرها يقع على صاحبها حتى يثور بها لاعج الحنين إلى ابنها النائى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح

النار ولذع الجمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تُحمله تبعة ما لقيت فى حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومَنْ تأخذه بذنب أولئك الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

وأحسَّتْ لذلك نوعاً من الرضى ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها المكتومة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد ، وربيعها الموءود ، وأمومتها المحرومة المعذبة !

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفًّا بها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها ، فكانت تهرب من الدار طول النهار مستجيرة بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوَّها ، وتستغرق فى صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفىء برحمته وقدرته ، هذه النار التى ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . . .

* * *

وتنفس الصبح وأنا فى مجلسى أصغى إلى حديثها المرير ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتْ صامتة

خاشعة ، وبدا لى أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيتُ عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً فى ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التى تمرح هناك آمنة لا تُراع ! .

المدينة المنورة : ١٥ / ٢ / ١٩٥١

العابدة

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

كانت السيارة تمضى بنا من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام ، وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق فى الجبال الصخرية التى تحف بجانبى الطريق فى شموخ صامد ، وأشعة الغروب تلقى ظُلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب فى رفق على السفوح العارية التى أرهقها قيظ النهار .

وأوشكت السيارة أن تتم أربعين ميلا ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصُّم والتلال المتراكبة والوديان الضيقة المفروشة بالحصا والرمال ، ثم لاحت لنا « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا فى ضراعة وابتهـــال :

— « لبيك اللهم لبيك . . . »

ورددت البطاح أصداء ابتهالنا ، فخيل إلينا أن الوادى قد امتلأ بجحافل المهاجرين والأنصار ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل مكة ظافرة ملبية ، مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، يوم الفتح : فى السنة الثامنة لهجرته . .

* * *

وطفنا بالكعبة سبعاً ثم خرجنا نسعى بين « الصفا » و « المروة » حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ على درج المروة ، تجاه الوادى ، أشرف على البلد العتيق . . .

ولم أكن ، حتى تلك اللحظة ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه أمىٌّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج مع القوافل أجيراً أميناً لسيدة ثرية من قريش . ثم اصطفاه الله رسولا فما رحل عن الدنيا حتى حطم أصنام الكعبة ، وشهد بعينيه راية الإسلام تخفق على كل بقعة فى أرض العرب ، وسمع بأذنيه مؤذنه « بلال » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً . . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التى أتممت فيها المسعى ،

أفكر فى شيء سوى هذا التاريخ المجيد فى الذى صنعه أمىّ يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له صدّيق ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتّى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة . وتدك حصون الطغاة والجبابرة ، وتجتاح ما عرفت الدنيا يومئذ من ممالك وامبراطوريات !

غير أنى لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى تراءى لى من وراء تاريخنا الإسلامى ، طيف « هاجر » وهى تهرول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لترّوى غلة وليدها إسماعيل .

* * *

خرجتْ به من خيام سيدها « إبراهيم » — عليه السلام — طريدة منبوذة ، كلُّ ذنبها أنها رُزقت غلاماً و « سارة » ، الزوجة السيدة عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى « إبراهيم » لتهبه ولداً ، وإنما قدمتها إليه زوجه سيدتها « سارة » فى لحظة يأس ، لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما سمحت لزوجها فى جاريتها المصرية ، إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكفّ الزوج عن ذكر الولد ، ويخنق فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية .

لكن التجربة لم تفشل . وشاء الله أن تحمل « هاجر » ؛ فأحست السيدة العاقر مرارة كادت تفسد عليها حياتها ؛ وخيل إليها أنها صغُرت فى عينى جاريتها . فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

— ظلمى عليك ! أنا دفعت جاريتى إليك فلما حملتْ صغرتُ فى عينها ! يقضى الرب بينى وبينك .

قال إبراهيم :

— هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .

فلم تكد « سارة » تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال « هاجر » إلى أن هربت من وجهها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت فى حجر إبراهيم ولده « إسماعيل » .

ولم تطق سارة على ذلك صبراً ، فما زالت بإبراهيم تحضه على أن يطرد هذه الجارية وابنها وهو يتردد مشفقاً ، ثم استجاب لزوجته آخر الأمر ، ومضى بهاجر منطلقاً من خيامه ، وراح يضرب فى الصحراء وهى تسير من ورائه

صامتة مستسلمة ، متشبثة بصغيرها الرضيع ، لا تكاد تفكر فى شىء إلا فى نجاتها به . . .

* * *

وأبعد « إبراهيم » فى السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمه القفر ، فوضع هناك هاجر وإسماعيل ، وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم انثنى ليعود من حيث جاء.

وتلفتت الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

ـ أين تمضى وتتركنا بهذا الوادى المقفر حيث لا دَيّار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين ، وثلاثا ، وهو منصرف عنها صامت لا يجيب !

ولم يبق لها من بعد ذاك إلا أن تتساءل :

ـ آللهُ أمرك بهذا ؟ ! .

وإذ ذاك فقط أجاب إبراهيم :

ـ نعم .

ولم يزد . . .

قالت هاجر :

— إذن فالله لا يضيعنا . . .

ورجعت إلى موضعها الأول بجانب الأطلال ، على حين مضى هو فى طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيَّبتْه ثنيَّة الوادى ، فاستقبل البيت العتيق بوجهه ودعا ربه فى خشوع :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

واستأنف مسيره فى طريق الشمال ، عائداً إلى أرض كنعان .

* * *

وخيم على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أم عطشى ، وصياح رضيع جائع ، جف النبع الذى يغذوه ويرويه .

لقد نفد الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفد ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركته أمه وانطلقت تبحث عن قطرة ماء . . .

وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه

لتشرف من علٍ على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة . فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهرولت حتى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . .

وظلت هكذا تهرول من هنا إلى هناك ، ساعية بين الصفا والمروة : مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء ، فتهالكت على الصخور منهوكة القوى دون أن تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب . وإذ تناهى إليها أنينه ، غطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع ، فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع ، مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! .

وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين ، وبدا كأن

شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الكئيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منهما الخفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله ، وثمّ . . . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبت عليه تغرف منه ، حتى إذا رُدّتْ إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فأرضعت طفلها المشرف على الهلاك .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده .

واستجاب الله لدعاء إبراهيم ؛ فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى زرع ، وإذا النبع — بئر زمزم — يجذب القوافل فى آثار الرعاة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا بالبيت ، ويسعوا مهرولين بين الصفا والمروة حيث سعت « هاجر » مهرولة منذ عهد موغل فى القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .

وهذه هى بئر زمزم ، ما تزال فى مكانها قريباً من قبر هاجر يتزاحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كتلك التى رَدّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

يا له من تاريخ ! . .

إن جهاد أمٍّ فى سبيل وليدها ، قد تقبلته السماء ورأت فيه أسمى صورة من صور العبادة ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية للأمومة ، سفراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء « إبرهيم » آية منزلة فى « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعى « هاجر » وهرولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، شعيرة من شعائر حج العرب فى الإسلام . . .

وظل حديث آلامها وعذابها وهمومها ، قصة تروى وحديثاً يؤثر .

وما كانت « هاجر » سوى أمَة طريدة مضطهدة ، نُبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة ، بواد غير ذى زرع . لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حبها عبادة وقرباناً ! ! .

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

« . . . إلى التى عجز الرق عن تعطيل حسها ، وخنق عواطفها ، وإهدار آدميتها ، وإقناعها بألا حق لها فى الحب ، أو البغض : تحية ، ورثاء »

بلغنا فى رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين فى أقصى الشرق ، وبدا لى أن أزور بعض النساء العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من موروث التقاليد ، فصحبتنى صديقة كريمة إلى بعض مَن تعرف من سيدات القوم .

وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يفضى إلى فناء داخلى ، تطل عليه قاعة الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .

وألفينا فى استقبالنا شابة مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق السجاد العجمى ، فنهضت لتحيتنا ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل ابتسامة نحيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إلىّ : « زوجة السيدة »

ثم التفتت إليها قائلة :

ــ ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتك آخر مرة ، عليلة تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتى :

ــ كذا ترينى يا ست ؟ حمداً لربى ، أنا بخير ما بقيت فى هذى الدار .

قالت لها السيدة :

ــ ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهى تقول مؤكدة :

ــ ما أعرف لى داراً غير هذا المكان ، وليس لى فى سواه مأرب ، ولا لى عنه منصرف ، حتى الموت !

صمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

ــ وزوجك يا آمنة ؟

قالت الشابة وفى نظراتها مزيج من الرعب والاحتقار :

ــ ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لى به شأن . طلقنى منه سيدى ، له الشكر ولله الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل

صاحبتى إن « آمنة » زوجة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبثها به إن لم تكن ربته ؟ وكيف يطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوج إن لم يكن السيد ؟

ولحظت صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

— لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن آمنة عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوّج « آمنة » من عبدٍ صانع أجير ، ويبدو أن « آمنة » لم ترض عن هذا الزواج ، فعادت إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حِوَلا .

رددت « آمنة » فى إصرار :

— هو ما سمعتِ : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى منها مرة كرْهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفىّ نَفَس ! أعرف أنى جارية ، أَمة ، مُستعبدَة ، ليس لى أن أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أرغم عليه حيَّةً ، فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . . !

وبترت حديثها بغتة ، إذ جاءت « السيدة » فى تلك اللحظة وعندئذ انكمشت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، دون أن تنبس ببنت شفة .

ونظرت أنا إلى « السيدة » : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة . أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وازينت كأنها تهيأ لحلوة العرس !

وجيء لنا بالقهوة والفاكهة فأصبنا منها ما اشتهينا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمت أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ، أجابت فى مرح :

ـ هبينى أشفقت ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من « المدينة » إلى « مكة » على ظهور الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل ترينها نزهة طيبة لعروس لم تخرج قط من « المدينة » ؟

فضحكنا جميعاً إلا «آمنة» ! قالت بصوت خافت ، وهى تعبث بخيوط اقفاعها :

— أما أنا فما استطعت . سألنى سيدى أن أصحبه إلى «المدينة» يوم طار إليها ليأتى بالسيدة العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة . إذ أنى أخاف ركوب الريح . . .

وصمتت بعد ذاك فلم تقل شيئاً .

حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت «آمنة» قائلة وهى تنظر إلىّ :

— تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفت فكرهت أن أشهد بعينى جلوة العروس .

فسألتها صاحبتى :

— وأى شىء فى ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقدر يجرى عليك وعلى مثيلاتك ، أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدار سواك ؟

أجابت فى بطء :

— أجل توقعت ذلك . . . وتوقعت أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى ! ويا لى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لمثلى حق الرغبة والهوى !

لكنه الضعف ، فمعذرة . . .

قلت وأنا أحدق فى عينيها :

ــ لا حاجة بك يا آمنة إلى الاعتذار ، فما أذنبت . إنى أفهمك يا أخت ، كما أفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :

ــ ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطف أنثى وطبيعة بشر؟ أو لم تلدك أمك مخلوقة سوية من الفصيلة الآدمية التى ينتمى إليها كل الناس ؟

فتهلل وجهها غبطة ، وامتلأت عيناها بالدموع ؛ لكن وجومها عاودها بعد قليل فتنهدت قائلة :

ــ لـت واحسرتاه أعرف أبوى ، غير أنى لا أفتأ أتمثلنى وليدة فى حضن أم ! وكلما رأيت طفلا يسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هانئاً بين ذراعيها ، هاجت شجونى وقلت لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم أعود إلى واقعى فأرانى ولا أمَّ لى ! نسج الزمان بينى وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شىء .

وأمسكتْ عن الكلام ريثما دخلت « السيدة » وأخذت

مكانها بيننا ، فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

— سمعتك يا ست ترغبين فى زيارة نواحى البلدة . لو شئتِ لأذنت لى أن أصحبك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة وبعض ساعة .

فأدركت على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار . . .

ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى . وخرجت مع « آمنة » .

وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران . ثم راحت تكمل رواية المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة صغيرة لاهية ، ضلت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألفت نفسها بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلَّم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت

نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة . فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلهم أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولا ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم فى اللعب ، أو يرون فى جاريتهم غير رفيقة صباً وزميلة ملعب .

حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع فجأة من بينهم ، وتدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد القفار . . .

وعبثاً حاولتْ أن تبقى مع من حسبتْهم أهلها ، وعبثاً حاول أترابها من صبية البيت : أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ؛ فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل تمهلت الفتاة عند باب الدار تريد أن تملأ عينيها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت الدموع بينها وبين ما تريد . . .

واندفع صبى من الأسرة يهتف بها ألا تحزن . فإنه

ماض معها إلى حيث يُسار بها !

فأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبى يستأذن فى السفر خالته زوج أبيه ، إذ كانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته فى مرافقة « الوليدة » حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليهما درساً فى الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها الفتاة أن من البشر من يباع ويشرى ، دون أن يكون له من أمره شىء ، أى شىء !

وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذى لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها فى ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانثنى يبكى لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها الطارئ من الشعور بالمحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها فى مثل هذا الشعور .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تُطلُّ على عالمها الماضى ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كئيبة موحشة . . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء !

وتناهى إليها فى تلك اللحظة . صوتُ حادى القافلة يَعِد الإبل بالرِّى والراحة بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى ، لكن نظرة صارمة من وجه « المشترى الغريب » أمسكت الدموع فى مقلتيها حبيسة متمرنحة . . .

وتمنت آنذاك لو أنها ناقة فى القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدوها فى رفق ، ويغنى لها فى حنان ، ويَعدها بالراحة والظل والرى . . .

* * *

حين وصلت « آمنة » إلى هذا الفصل من قصتها ، خنقتها العبرات ، فتركتها تبكى ، حتى أراحها البكاء ؛ فاستأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب فى البيداء أياماً وليالى حتى أشرفت على نجد . وآن لنا أن نحط الرحال .

وقادنى الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، فتفرس السيد فى وجهى حيناً ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة بشئون الدار .

وبدأت عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذى كان. بدت لى الدار موحشة خراباً برغم ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لقد افتقدتُ فيها الصبية والأطفال ، وألفيتنى أعيش وسط جمع متناكر من النساء !

كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن متماثلات فى الزى والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء . .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها فى الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمع من العبيد .

وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفيتنى بعده

أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !

واستسلمت لحياتى الجديدة وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتْ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوثرت بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيد بين ذراعيه إلى فراشى ، وسهر على رعايتى ، يسقينى الدواء ، ويملأ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلىّ بادىَ اللهفة ، وملء يديه الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل ينسينى أنى أمَة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها فى فمى كلما ذكرت اللحظة الرهيبة التى ودعت فيها صباى الخلىّ ، ولقّنت الدرس الأول عن محنة الرق . . .

أجل ، كدت أنسى . . . لكن الزمان لم يسمح لمثلى بالنسيان .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقنى فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لهفته علىّ ، حين يثوب بهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمة جديدة أنزلها المنزل الأول الذى كان لى ، واختصّها بما كان يؤثرنى به من رعاية وتدليل !

وانزويت فى الدار محاولة أن أستسلم ، فما كان من حقّى أن أثور ، أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال « المحظية » الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتى الأمة العجوز التى حرصتْ على أن تميت حسّى رحمة بى ! فما يجدى الألم فيما لا يد لنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره .

وسهرتُ الليالى فى كفاح أليم غايته أن أخنق بشريتى وأعطل إحساسى ، حتى أفلحت فى أن أهيل فوق قلبى وروحى أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حينما رأيتُ السيد فى غرفتى التى هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم ، عنيف مثير : أصر على أن أبقى له حيث يشاء ، كما فعلت زميلات لى من قبل ، وأصررت على أن يبيعنى ليعفينى من العيش فى هذا الجحيم .

قال مهدداً :

— لو ظللتِ على عنادك ، بعتك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

— افعل ! افعل بالله ! إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة فى مضارب البدو ، أجمل فى عينى من البقاء فى هذه الدار الرحبة ، رافلة فى حلل من حرير !

فاشترط لكى يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعة ، ريثما يختار لى من يشترينى ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشترى ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مر بنا فى رحلة له بنجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة ، أهون من المرة التى سبقتها ، ولذلك عجبت حين شعرت بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يد سيدى للمرة الأخيرة ، وحييت صديقتى الأمة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بى مودعات داعيات .

ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقتنى صبية عذراء ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنوات ، امرأة قد شربتْ الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت

بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتني رحلتي من « نجد » برحلتي الأولى إليها ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة . وكان سيدى الجديد رفيقاً بي طوال الطريق ، فلم يضق بوجومي وانقباضي ؛ بل تركني أجتر أحزاني في هدوء !

وحططنا الرحال في « الأحساء » فأدهشني ألا أجد في الدار امرأة سواي .

واتخذني سيدى صاحبة له ، وزوجة ، وربة بيت ، فتفتح له قلبي المغلق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فانية في السيد الحبيب مستغرقة ، وامتد بي هذا الحلم الهنيء حتى أتم سبع سنين . . .

« ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رجلي أن يقنع بأمة عقيم ، وزينوا له أن يأتي بأخرى قد تنبت « البذرة » التي عجز كياني المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس في أذن سيدى وقعُ السحر ؛ فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له « البذرة » المشتهاة ،

ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير ، من طبقتى .

وحاولت هذه المرة أيضاً أن أستسلم لقدرى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى . متشبثاً بالدار التى أظلتنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأب والأخ والزوج والرفيق الحبيب !

قال لى سيدى : « صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام » .

لكن الأيام مرّت ، والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق واشمئزازاً وبغضاً له ومقتاً .

وهربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غُلِبَ الصبر ونفد الاحتمال ، فأبيت على الزوج الكريه أن يمسنى . ولما حاول أن يخضعنى بالقوة . عدوت هاربة فى جوف الليل . واذت بدارى الأولى هذه . ضارعة إلى « السيدة » أن تدعنى أعيش لها أمة خادمة . أو فلتأمر السيد بانتزاع روحى من جسدى إذا شاءت ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .

واستجابوا لى ، فكان الطلاق والخلاص ، وتُركت حيث أريد ، مكتفية بأن أسمع صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .

وذاك حسبى من دنياى »

* * *

قلت « لآمنة » ونحن عائدتان إلى الدار :

— ترين يا آمنة ، او وهبك السيد حريتك . . .

فلم تدعنى أكمل العبارة ، بل قاطعتنى فى مرارة :

— وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا افتقدتنى الدار التى كانت لى يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعى بحياتى كلها ، وقلبى مصفد بأغلال رقه وهواه ؟

ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبت على يدى تقبلها وهى تهمس :

— شكراً يا ستى ، ألف شكر ! كنتِ كريمة إذ رأيت فينا ، معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق قلبها ، وإقناعها بألا حق لها فى الغيرة أو التألم والشكوى ، أو الحب والبغض .

وغابت « آمنة » عن عينى ، فلم أردها حتى همت بمغادرة الدار . وإذ ذاك لمحتها تخطو نحونا شاحبة متداعية ، ثم تقف بباب العربة لتقول لنا مودعة .

— فى أمان الله . . . .

الدمام : جزيرة العرب : ١٠/٢/١٩٥١